

سَيُنْزِلُنَا: ((مَا يَسُرُّهُمْ أَنَّهُمْ عِنْدَنَا)) ... ③

كَلَّمَ عَلَى قَفَرٍ

سيرة الشهيد - كما تحسه - عبد الرحيم

بسم: أبي عبيدة الجزائري

دعوى علي بن محمد

سيرة الشهيد - كما نخبه - عبد الرحيم

بقلم: أبي عبدة الجزائري

الإهداء

(تهادوا تحابوا) حديث (حسن).

الإهداء الأول:

أهدي هذه الرسالة إلى أهل السَّعيد خاصّة، مدّ الله ظلّهم، وأدرّ وبّلهم وطلّهم.. فليصافحوها براحة القبول، فعّلها تكون لهم بردا وسلاما على القلوب، وقميص يوسف في أجفان نبي الله يعقوب – عليها وعلى نبينا الصلاة والسلام – هدية يرفعها إليهم إجلال وإعظام، وتصحبها تحية وسلام...

الإهداء الثاني:

كما أهديها أيضا إلى كل العباد، العاملين تحت راية التّوحيد والجهاد، السّاعين إلى بناء صرح الخلافة الرّاشدة على منهاج النّبوة.. وليكن مهرها دعوة صالحة بظهر الغيب..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِزَّنِي..

نبذة يسيرة؛ ومحطات سريعة:

الاسم الحقيقي لهذا الأخ المجاهد: بشّاني السعيد.

ولد رحمه الله يوم 24 / 07 / 1966 ميلادية في بلدة حمزة، دائرة العوانة، ولاية جيجل.

وأخي الحبيب السعيد له من اسمه نصيب، فلقد كانت أيامه مشرقة بالسعد والهناء، متألقة تألق البدر في أفق السماء..

تربّى ونشأ في أسرة عريقة، فتربّى تربية إسلامية سامية.. وبعد أن أكمل دراسته اشتغل معلّمًا في مدرسة ابتدائية ببلدته.. وكان يحظى بحبّ عجيب من قبل تلاميذه، كانت نفسه متطلّعة لنصرة هذا الدين والذّبّ عن حياضه، فما أن أشرقت في سماء الأُمّة شمس الجهاد في سبيل الله، وسطع نورها فوق الرّبوع، حتى كانت نفسه الأبية - رحمه الله تعالى - من النفوس التي فاءت إلى حمى ذروة سنام الإسلام واستظلتّ بظلاله الوارفة، حيث التحق بالمجاهدين مبكرًا، وكان ذلك سنة 1993 ميلادية، وهكذا ظلّ رحمه الله مجاهدًا تحت راية التّوحيد الخفّاقة.. يبذل لدينه أعزّ ما يملك.. إلى أن جاءه القدر المحتوم، فروى دمه أديم الثّرى وأفلّت شمس حياته عشية يوم من أيام سنة 2000م..

مرّ على جهاده سبع سنين كاملة، نسأل الله أن يتقبّل منه صالح الأعمال وأن يتقبّله في الشّهداء، وينزله بحبوحه الجنّة دار السّعداء، هو وليّ ذلك ومولاه وهو على كلّ شيء قدير وبالإجابة جدير..

مُقْتَلَمَةٌ

الحمد لله القائل: ﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (آل عمران: 157)

والقائل: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: من الآية 74)

والقائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: 111)

والقائل: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ (محمد: 4-5).

والصلاة والسلام على سيد المجاهدين وإمام المتقين، وعلى آله الذين تحمّلوا في الغزوات مشاق البرد والحر، واقتحموا في نصر دينه عقبات البحر والبر، وبعد:

فَإِذَا رَسَالَةٌ نَافِعَةٌ مَاتَعَةٌ؛ نَاطِقَةٌ بـ: (دمعة على عبد الرحيم) وهي ترجمة تضحك عن غُرَرِ وزهر، وكلمات تنطوي على كنوز ودُرر، فإلى سياقها ورحابها:

تمهيد ؛ ومقدمة أخرى لا بد منها:

أخي القارئ الكريم لقد ظهر في الفترة الأخيرة والقصيرة من الجهاد الإسلامي العظيم، عدد ليس بالقليل من الشخصيات النموذجية الفذة الفريدة، والتي تتمثل فيها المبادئ والقيم الإسلامية العليا بصورة واضحة ناصعة مشرقة؛ وهي صورة تبدو في ظلها جميع الشخصيات التي نشأت في غير هذا المنهج وانحرفت عنه أقزاما صغيرة، أو كائنات حقيرة لم تستكمل وجودها بعد.. والتي لا ينبغي أن يلتفت إليها.. فما أغنى الشموس عن الشموع كما قيل، وفي طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل..

ولا غرابة أخي الحبيب في أن تكون تلك الشخصيات بهذه المثابة، فهي صناعة الله سبحانه وتعالى القائل في شأن نبيه الكريم، موسى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طه من الآية: 39)، أي: (ولتربى على نظري، وفي حفظي، وكلاءتي) (تفسير السعدي).

ولقد صارت تراجم أولئك الرجال العظام، بالنسبة للصادقين من أبناء هذا الدين، مادة لا يغور ماؤها، ولا ينضب معينها؛ وقد سرت في أعماقهم مسرى الدم من العروق.. فلا تعجب إذا رأيتهم يتناولونها مع الشروق والغروب.. فلنحيا أيها المجاهدون لنحيا بها.. ف:

الحُرُّ يُعَلِّي شَأْنَهَا وَالغُرُّ يُبْغِي مُحَقَّهَا

ولو كان الدهر يفصح لنا يوما عن انشراحه وابتهاجه، لأنبأنا بأنه ادخرها غُرةً لجبينه ودرّةً لتاجه، وهي إن شاء الله وديعة الأسلاف للأعقاب، تخبر بالعبر، وتحدث عمّن غُبر؛ فاحفظ أخي القارئ ما يتلى عليك، وانظر بعين البصر والبصيرة إلى ما بين يديك، وأنس به كما يأنس الطفل بثدي أمّه:

تلك آثارنا تدلّ علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

وها أنا أنقل كلمة نفيسة في هذا الموضوع للشيخ العلامة البشير الإبراهيمي، فخذها بأبلغ عبارة وأدق إشارة، فقد صاغها - الشيخ - في القالب الذي يلفت الأنظار، ويُجَلِّي صدأ الأفكار..

يقول - رحمه الله تعالى - في سياق حديثه عن عظماء الإسلام: (إن غفلتنا عن إحياء ذكريات أجدادنا التاريخية هي التي أزهدت في الأمم الإسلامية روح التأسي فأفقرتها من الرجال وجعلت تاريخها الحديث خُلوا من المثل العليا، حتى اندس هذا العرق الخبيث في آدابنا إذ التمسنا مثلاً في الجود طويلاً تاريخ الإسلام كله كأنه صفحة مغسولة وجئنا من العصر الجاهلي بحاتم وقُل مثل ذلك في عنتر

والسَّمَوَّال، فإذا قصرنا الخطو وقاربنا النّجعة، وقفنا عند العصر الأول للإسلام؛ فهل خلت العصور التي بعدهم من مُثل كاملة، ومن مفاخر خالدة؟ لا. فقد تأسى عصر بعصر وجيل بجيل فجاءت عصور زاهرة وأجيال عامرة، فلما جهل التاريخ وانقطعت العلائق الواصلة بين عصوره ضَعُفت روح التّأسي ثم تلاشت، وصِرنا إلى هذا الفقر الشائن في المُثل، وهذا الخواء المزري في التاريخ.

وقد زادتنا أضاليل الغاشين إمعاناً في الغفلة، وإغراقاً في الرّكود، فقهاء هذه العصور الجرداء يُعَدُّون التاريخ علماً لا ينفع وجهالة لا تضرّ، والأجانب يعيروننا بأننا أمة تعيش في الماضي ويعشّون سفهاءنا في معرض التنصّح بأمثال هذه الكلمات ليّاً بألستهم وترهيداً في هذا الماضي زيادة على زهدنا فيه، وهم يعلمون أننا نعيش بلا حاضر، ويوجسون خيفة من أن يلّم بنا طيف من ذلك الماضي الزّاهر، فنبني عليه حاضراً من جنسه أكمل منه.

إلا أنّهم من إفكهم ليقولون: دعوا ماضيكم فهل تركوا هم ماضيهم؟ إننا نراهم أحرص الناس على الاعتداد به والاستمداد به، والامتداد معه إلى عصور الخرافات والأساطير (اهـ من: (الآثار)، إن في ذلك لبلاغاً لقوم يتفكرون..

أخي القارئ: لقد عمل أعداء هذا الدين بما توحى إليهم شياطينهم، واتبعوا ما تتلوه عليهم - ونحن نتربص بهم صنع الله - فروّجوا لأسماء أناس هم من سَفَلَة الناس، ترجمة أحدهم في سَطَر، ومداها محصوراً في شبر.. وهي هابطة ساقطة، بطولة أحدهم حُسن قذف جلد منفوخ، أو حسن إمساك (مايكرفون) لينهق به كما ينهق (...). - وليكن ما بين قوسين اسم الحمار! - وغيرها من الحِرَف الخسيسة (القائمة طويلة طويلة)، فصّمو آذان شبابنا بأسماء أولئك الساقطين والساقطات، والعاهرين والعاهرات الفاجرات و(واصل على نفس النسق)، حقّ لنا أن نُحوّقل، ونسبّح بحمد خالقنا العظيم فنقول: يا سبحان الله العظيم، فما تلك التماثيل التي هم لها عاكفون؟! وإن كنتم - أيها القراء - في ريب مما أقول! وتماروني على ما أرى! فسألوا شبابنا ماذا يعرفون عن أولئك الرجال العظام من أمثال: الشيخ عبد الله عزام، وأنور شعبان، ويحيى عياش، وأبي عبد الله أحمد، وقاري السعيد، وأبي إبراهيم مصطفى، وخطاب، وأبي الوليد، وأبي أنس الشامي، وعبد الله الرشود..

وغيرهم وغيرهم من أبطال هذا الدين - رحم الله الجميع -، ألا أنبئوهم عني أنهم في غفلة ساهون لاهون، يفتنون في كل عام مرة أو مرتين (أو أكثر) ثم لا يعون ولا هم يذكرون.. فאלلهم اهدي قومي فإنهم لا يعلمون.. فيا لله لقد ساءت الحال، و تراخت الحال:

فيا دعوة الحق سودي الدُّنا ويا أمتي سدّدي واصعدي.

وقبل أن أغادر هذه القضية، اسمحوا لي أذكر لكم هذه القصة وهي وقفة هامشية..

كنت مرة أتجاذب أطراف الحديث مع أحد الإخوة الأصدقاء، وهو الأخ أبو عمران عبد الرحمن، وكان حديثنا يدور حول ما آل إليه حال الناس في هذا الزمان.. فقال لي ما مضمونه: كنت مرة في قرية - وذكر اسمها ولا داعي لذكرها - مع أحد الشبان في بيته، وكانت معلقة على جدرانها صور عديدة - ولا تظن أخي القارئ أنها صور الكعبة الشريفة، أو المسجد النبوي الشريف، أو المسجد الأقصى - لا.. ليس هذا ولا ذلك، وإنما هي - حاشاك - صور لاعبين عراة، وبأوضاع مختلفة، قال لي عبد الرحمن: فجعل ذلك الشاب يُرني ويعرّف لي أولئك اللاّعين، وكان من ضمنهم لاعب برازيلي اسمه (.....؟) فقال لي هذا اسمه (كذا) ويوم أن سجّل هدفا في المباراة الفلانية.. ولدت زوجته طفلا...!! أو كلاما نحو هذا الهراء والغثاء..، قال لي أبو عمران فقلت له - طبعاً وهو حيران -: أردت أن أسألك..! هل تعرف خالد بن الوليد؟ فقال لي: أين يسكن؟؟!!!! فسبحان هادي العُمي عن ضلالتهم..، ونسأل الله لنا ولشباب المسلمين العافية..

فتأمّل أخي القارئ واعتبر بما ذكرنا لك من قبل، وكم من حكاية وقصة شبيهة بهذا المثال، والمقام - في الحقيقة - لا يحتاج إلى تعليق، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولكن أقول من كان هذا شأنه، فليبك على نفسه، وليبحث الرّماد على رأسه، فإنه في مهاوي الردى.. تالله إن لم يتداركهم الله برحمته، لقد ضلّوا وما كانوا مهتدين..

وإليك أخي القارئ كلاماً آخر للشيخ البشير الإبراهيمي فأمّتع به سمعك، يقول رحمه الله، وطيب ثراه: (ومن العجيب أن الأمم الإسلامية - وهي أغنى الأمم في باب الأسماء العظيمة - كانت وما تزال الكثرة منها تحتفي بأسماء نالت في جنون من الدهر، وعربدة من التاريخ، واضطراب في العقل حظاً من الشهرة بما لا يشرف قدراً، ولا يعلي منزلة، ولا يثير ذكرى حيّة، وأفاضوا على هذه الأسماء

صبغة من التقديس، وجعلوها معاقد لإيمانهم، وأعلاما لولدانهم، وإننا لنجد في الأسماء الرائجة بيننا ترديدا فاحشا لهذه الأسماء المنومة، وقل أن نجد بيننا اسما من الأسماء التي تعدّ تواريخ مستقلة، وبدءا في الخلق، وتجديدا في الحياة، والتي تثير عند سماعها معاني العزة وذكرى الشرف والرفعة) انتهت الأنوار من: (الآثار) فرحم الله الشيخ على تلك الجمل الحكيمة، ذات الألفاظ القويمة، والمعاني المستقيمة..

أبدت من فصل الخطاب بحكمة تُنبئ عن الحق المبين وتخبرُ

والسؤال: ماذا سوف يقول الشيخ الإبراهيمي، لو عاش أيام زماننا هذا، ورأى ما رأينا، وسمع ما سمعنا..؟ ماذا يقول ماذا..؟؟

ولعله - أخي القارئ - ينفذ يديه عجباً، ويتخذ في الأرض سرباً..!
وقبل أن أغادر هذه المقدمة، التي دعت إليها تلك الأوضاع المظلمة، أعتذر على الاستطراد، فقد كانت الحاجة إليه ملحة كما رأيت.. فإلى:

* * *

من المؤمنين رجال:

ومن الرجال معالم ومجاهل ومن النجوم غوامض ودراري
كنت أقرأ كلاماً للشيخ البشير الإبراهيمي رحمه الله؛ يقول فيه: (ولقد علّمتنا لغة العرب فناً في مصاص الأشياء، فقهاً منه أن من النساء عقائل، وأن في الأموال كرائم، وأن في الجواهر فرائد، وأن في النجوم دراري، وأن في الشعر عيوناً، وأن في الذخائر ألقا، إلى آخر ما يجري على هذا النسق..)
انتهى كلامه.

فقلت في نفسي: ولقد علّمتنا القرآن الكريم أن من المؤمنين رجالاً، ومن الرجال أبطالاً، ومن الأبطال جبلاً، إلى آخر ما يجري على هذا النسق..، قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: 23).

أخي القارئ: إن صدى هذه الآية العظيمة يدفع الهم والغم؛ بل والكسل عناً، ويورق مضاجع الصادقين مناً، وقد جاءت في جمال مبنئ وحسن معنى؛ أو ليست من عند الله؟؟

ولذا هتفنا مرارا وقلنا:

قد اختارنا الله في دعوته و إنا سنمضي على سُنَّته

فمنا الذين قضوا نحبتهم ومنا الحفيظ على ذمته

فكلما يقرأ الإنسان تلك الآيات البينات الكريّات، إلّا وتذكّر أحبابه وإخوانه، الذين قضوا نحبتهم على درب هذا الجهاد الميمون، والله أسأل أن يكونوا على أحسن ما يكون (في جنّات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر)، إخوة إذا تذكّرهم المرء خنقه الغمّ، وحمى فؤاده الهمّ، ويصبح في نهار أحلك من ليل، ويمسّي في ليل أشقّ على النفس من ويل (بيت كما بات السليم مُسَهَّداً) أو: كالذي اكتحل السُّهاد، وافترش القتاد، حاله كحال من قال:

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي.

وما أحوجنا أن نتمثّل في هذا بأبيات الشاعر، التي تستوقف المشاعر:

كيف التصبّر من نارٍ نوى وجوى وفي الحشا أنكاء جرح غير مندملٍ

فقد فقدت الألى كانت ببهجتهم نور التّواظر في الأحداق والمقلٍ

لم أكتحل بقرار بعدما ارتحلوا ولا ابتغيت لهم في الناس من بدل

لم يُبق لي الدهر بعد البين من جلدٍ ما أستطيع به توديع مرتحلٍ

ولكنني أعلم - بحمد الله - أنّها شدّة وتحول، وسحابة لا تلبث أن تزول:

ألا أيّها الليل الطّويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثلٍ

فصبرا على كيد الزّمان وكده، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده:

إنّ الظّلام إذا تزايد وقعه والكّل ملّ من السّواد الفاتر

هبت جيوش الصّبح من أوكارها ليسطرّ الإشراق بعض خواطري

ولعله؛ نصر وسعادة، أو قتل وشهادة، (قل عسى أن يكون قريباً)، فلا بدّ إذا من التّصبر، والتّدبّر

والتّبصّر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل

عمران: 200)

يا قلب صبرا فإنه سَفَهٌ بالحرّ أن يستفزّه الفرعُ

أعاننا الله على صعوبة الطّريق وقلة الرّفيق، وأهمنّا صبرا يهون علينا احتمال المغارم، ويقربّ علينا

مسافة المكارم، فبالصبر تنال العُلا، وعند الصُّباح يحمد القوم السُّرى..

وإنَّ من بين أولئك الرِّجال الذين تَوَّهنا بذكرهم فيما مضى من الإجمال، أخ لنا كريم، كان لنا من خير الأعوان، ونِعَمَ حامل المعروف والإحسان، وأحسبه من أولئك الرِّجال الذين قضوا نحبهم على درب هذا الجهاد المبارك، وبذل في سبيله نفسه ونفيسه لمتحقِّقٍ بحقٍّ أوفى أكتب عنه هذه التِّرَّةُ حمة العطرة، وهذه الشهادة الطيبة النيرة، علَّنا نفيه بعض حقِّه، تكون لنا عذرا إن كنَّا قَصْرنا في ذلك أثناء حياته، أو بعبارة مغايرة: هي دموع المقصَّر بعد العتب، والتائب بعد الذنب.. فشفيح المذنب إقراره، ورفض خطيئته عند مولاه استغفاره ..

* * *

لا تكتُموا الشَّهادة:

استنادا لقول الحبيب الهادي ﷺ: ((أنتم شهداء الله في الأرض)) [السلسلة الصحيحة: 3 / 295]، ووفاء لحقِّ إخواننا وأحبابنا وأصدقائنا وفاق هذا الدرب النير، وخدمة لهذا الدين ولو بكفٍّ رمل، أو نزع دلو، قمت بتدوين هذه الشهادة الطيبة، والتي تتمثل في ذكر بعض المآثر والمفاخر، التي كان يتحلَّى ويتخلَّق بها الأخ السَّعيد رحمه الله تعالى، وها أنا ذا أكتبها وأرسلها لتطوف على النفوس الأبيَّة الزَّاكية، هذا وقد كسوتها حُللا من العبارات الرَّاهية، حتى تدنو من القلوب الرِّقيقة الصَّافية ..، وهي كلمات - بحمد الله - ليس فيها لاغية، علَّها تكون أنيسا وممتعة لرفاق الدَّرب وطلَّاب الجنان العالية، كلمات وفاء، وصفاء، ونقاء، تتمثَّل في ترجمة عطرة باسمه الكماكم، فاتحة النَّسائم، كيف لا؛ وهي تحكي - كما ذكرت من قبل - مناقب الأخ السَّعيد الكريم، الذي كان كالغصن الرُّطب يميل به كلُّ نسيم، صاحب المناقب التي تشرق في جبينها غرَّة الصُّباح، وتتهادى أخبارها وفود الرِّياح، وعند تحريكها هي نسيم الوَرْد؛ بل المسك الفياح، تهبُّ على الرُّوح كما يهبُّ نسيم السَّحر على صفحات الزَّهر.. وبعد حين؛ سوف أُعطر الشَّام ببعض مآثره ..

نعم؛ له محاسن سارت أخبارها، ولاحت آثارها، وما المرء إلَّا ذكره ومآثره، لقد حفظ له التاريخ في أنصع صفحاته ذكرا حسنا، ومجدا وسؤددا، فله الذكر الذي ينبغي أن يُذكر، والأخبار التي تحفظ وتنشر، وها أنا أدوِّنه في الطروس، لئلاَّ يمحيه النسيان من النفوس..

وهذا الأخ الحبيب كانت بيني وبينه صداقة باذخة الذرى، وأخوة وثيقة العرى، وكان الواحد منا يعتمد على أخيه في البعد والقرب، اعتماد الملاح على نجمة القطب، فيا لله كم من شهور وأعوام قضيناها، وليال من الدهر اختلسناها، كان السرور فيها ضاربا خيامه، والأنس ناشرا أعلامه، وكم من مساع سعيناها وحوائج مع بعضنا البعض قضيناها.. كل ذلك كان على رُبا جبل (بوحنش) وتلال حمزة وبالجملّة: بضواحي (جيغل) وما جاورها..

أولئك أحبابي فجئني بهم يا (أخي) إذا جمعتنا المجمع

لقد انقطع بيني وبين أخي السعيد في هذه الدنيا باب التلاق، وطال أمد الفراق، والمرء يحنّ إلى أخيه حنين النّجيب إلى عطّنه، وحنين الغريب إلى أهله ووطنه، وهذه الكلمات شاهدة على ذلك، وبالأنين يُعرف ألم الجرح..

والآن - أيها الأحبة - نقلّب بإجلال وإكبار، بعض صفحات حياة أخي السعيد - رحمه الله تعالى - فيلّي سجلّ المفاخر، نتصفّح فيه بعض ما تحلّى به رحمه الله، وها أنا أعرفّكم به، لأنني أعرفّكم به، وأسأل الله أن يبارك في هذه الخطوة السّديدة، وأن يجعل القبول لهذه الكلمات السعيدة..

* * *

محاولة ذهابه إلى أفغانستان؛

كانت الغيرة على الدّين ومحارمه، والتأثر بقضايا المسلمين عامّة، السّمة البارزة في شخصية الأخ السّعيد، ولهذا لما اشتعلت نار الحرب والضرب في أفغانستان، وشبّ ضرامها بين المجاهدين والشيوعيين أتباع الشياطين، حاول السّعيد كما حدّثني ابن عمّه أبو دجانة حفظه الله، أن يذهب إلى أفغانستان ليشارك إخوانه المجاهدين هناك في تلك الحرب الضروس، ويلبّي داعي الجهاد في سبيل الله الذي تعيّن على المسلمين في ذلك الوقت، كما أفتى بذلك الكثير من العلماء، وعلى رأسهم الشيخ عبد الله عزّام رحمه الله، ولكن ظروف قاسية حالت بينه وبين ذهابه هناك، وعلى رأسها عدم وجود النّفقة، التي كانت باهضة في ذلك الوقت، فبقي السّعيد حزينا كسيرا متحسّرا على عدم إدراكه تلك الأمنية الغالية، التي يسعى إليها كل من تتطلّع نفسه إلى نصرة دين الله وإدراك ما أعدّه الله للمجاهدين والشّهداء في الجنان العالية، ولكن المهمّ؛ هو أن ليس عليه في ذلك حرج، فقد عذره ربّه

سبحانه بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمُرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 91] فما على المحسنين - أخي السعيد - من سبيل... وأسأل الله أن يأجرك على نيتك بمَنِّه وفضله..

* * *

نفيhre وتركه مهنة التدريس:

إذا كانت فرصة الذهاب للجهاد في أفغانستان قد فاتت أخي السعيد، فما كان لها أن تفوته على أرض بلاده التي ترعرع بين أحضانها، فما أن دَوَّتْ صيحة النّفير (يا خيل الله أركبي، حي على الجهاد) إلّا وكان السّعيد من زمرة السّابقين الأوّلين، متمثلاً بقول من قال:

بادر الفرصة واحذر فوتها فبلوغ العزّ في نيل الفرص
وابتدر مسعاك واعلم أنّ مَنْ بادر الصيد مع الفجر قنص

فكان من أولئك الرّجال الذين حازوا قصب السّبق في الذّبّ عن حياض هذا الدّين... وهذا الدّين بكلّ صراحة ووضوح، لا يقف على ثغوره الوعرة إلّا الصّادقون من أبنائه، وإنّ من أخطر ثغوره وأجلّها ثغور الجهاد في سبيل الله تعالى، فليس طريق الجهاد مطية ذلولا يندفع لركوبها العاجز والحازم - ولو كان فضله عظيماً - وهو لا يخفى على كلّ قارئ لكتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ ولكن :

كم من رياض لا أنيس لها تُرِكَتْ لأنّ طريقها وعُرُّ

التحق الأخ السّعيد بإخوانه المجاهدين، وذلك سنة 1993 ميلادية، وترك خلفه منصبه غير آسف ولا نادم عليه، فالعقيدة عنده أحلى، وأعلى، وأغلى، ولسان حاله:

خذوا كلّ دنياكم واتركوا فؤادي حرّاً طليقاً غريباً
فلإني أعظمكم ثروة وإنّ خليّتموني وحيداً سليماً

وكم وقفت المناصب وغيرها من المغريات، عقبة كأداء في طريق النّاس، فتخلّفوا عن ركب الجهاد في سبيل الله، ولكن أنّى لعبد قذف الله في قلبه نور الإيمان فخالطته بشاشته، أن يتخلّف عن ركب الإيمان، واللّحاق بقافلة المجاهدين ولو أن يكون في ساقهم... والمعدور من أولئك - المؤمنين - سبل الخير أمامه كثيرة، قال الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِّأَنْفُسِكُمْ

وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ [التغابن: 16]

يقول الشيخ المجاهد عبد الله عزام رحمه الله - وتأمل أخي في الله -: (ويستحيل على عبد تستقر في مسارب نفسه عقيدة التوحيد ويبقى ساكنا جامدا ميتا لا حراك فيه لا بد أن تتحول هذه العقيدة إلى حرارة تغيث بها الصدور، و تفيض أفعالا في عالم الظهور وتنتج سلوكا وأخلاقا وأنظمة مثل ماء السماء الطهور) انتهى من كتاب: (في خضم المعركة).

وهذا الكلام عزيز لا يفهمه إلا أربابه، ولا يدرك كنهه إلا أصحابه، ولهذا، قام الأخ السعيد على أمشاط رجله، متوكلا على ربه، عازما على مواصلة الطريق، إلى أن يظفر بإحدى الحسينين، تاركا خلفه المغريات والماديات متناثرة على جنبات الطريق، قائلا لها إليك عنّي إليك عنّي.. حاله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: من الآية 84]

إذا نام غرّ في دُجى الخطب فاسهر وقم للمعالي والعوالي وشمر
وخلّ أحاديث الأمانى فإنّها علالة نفس العاجز المتحير

متمثلا بقول من قال: (إنّ الصادق إذا همّ؛ ألقى بين عينيه عزمة) نسأل الله همّة تسمو بنا إلى الكمال، وتوفيقا لصالح الأعمال فإن سالكي طريق الحقّ أفراد..

* * *

أخلاقه وآثاره:

هذه المحطة - الأخلاق - أيها الأخ الكريم هي عقد في جيد رسالتنا هذه فاسمع أخي رعاك الله: لقد أقام ديننا العظيم - الإسلام - صرح الحياة الاجتماعية، على قواعد وأسس متينة من الآداب العالية، والفضائل السامية والقيم الرّاقية، وما المرء من غير آدابه و أخلاقه؟! ومن أوتي الأخلاق الكريمة فقد أوتي خيرا كثيرا:

فإذا رزقت خليفة محمودة فقد اصطفاك مقسم الأرزاق

فالناس هذا حظّه مال، وذا علم وذاك مكارم الأخلاق

ولكنّ الله سبحانه وتعالى خصّ بها - الأخلاق - الكرماء الذين جعلهم أهلها، فخفف عليهم حملها، وسوّغهم فضلها وبرّها، وهباً لهم أسبابها، فوقفوا عليها جادّين حازمين، وواصلوا السير إليها

بالْغُدُوِّ وَالرَّوَّاحِ، فَتَحَلَّوْا بِهَا وَحَمِدُوا عِنْدَ الْوُصُولِ مَسْرَاهِمَ، وَإِنَّمَا يَحْمَدُ الْقَوْمَ السَّرَى عِنْدَ الصَّبَاحِ..
وما الليل إلا للمجدِّ مطيَّةٌ وميدان سبق فاستبق تبليغ المنى

وفي الحركة بركة؛ كما قيل ..

والأخلاق الكريمة أخي القارئ، لا يتحلَّى بها إلا من شمَّر وبادر، وكان التَّوفِيقَ مطيَّةً، والابتغال
إلى الله طويَّةً، وهم أولوا البصائر والأنفس الطَّيِّبة الرَّاكَياتِ، والهمم المهنَّبة العاليات، جعلنا الله
وإياك منهم بمنَّه وفضله..

أمَّا الأخ الحبيب السَّعيد رحمه الله، والذي أنا بصدد الحديث عنه فقد طلعت شمس الآداب من أفق
أخلاقه، وتفجَّرت ينباعها من خلال آثاره، لقد كان رحمه الله ينتهز كلَّ فرصة ليثبَّت بها دعائم
الأخلاق السَّامية، وهي سَجِيَّة ظاهرة فيه، فلو استنطقت لسان حاله لقال:

إِنِّي لَتَطْرِبُنِي الْخِلَالُ كَرِيمَةً طَرِبَ الْغَرِيبَ بِأُوبَةِ وَتَلَاقٍ
وَيَهْزُنِي ذِكْرَ الْمَرْوَةِ وَالنَّدَى بَيْنَ الشَّمَائِلِ هَزَّةَ الْمُشْتَاقِ

فأخي السَّعيد من شرف العنصر الكريم، ومعدن الشَّرَفِ الصَّمِيمِ، أصل راسخ.. وفرع شامخ..
هَمَّتْهُ تَنَاطُحُ الْجُوزَاءِ، فَلَا تَسْمُوا إِلَّا لِلْمَعَالِي، لَهُ أَخْلَاقٌ تَسْتَنْطِقُ الْأَفْوَاهَ بِالْاعْتِرَافِ!، عرفه الجهاد
بفضله.. وتشهد الأرض باجتهاده وسعيه.. ولولا كثرة استعمال المثل: (عجزت النساء أن يلدن
مثله) والذي صار مُبْتَدَلًا، ويقال في أناس يجود الزمان بالمئات من أمثالهم، لقلته في حقِّه - أحسبه
كذلك والله حسيبه - فاسمع أخي القارئ وَرَى زَنْدِكَ، وَعَلَتْ يَدُكَ، أَتَلُو عَلَيْكَ بَعْضَ أَخْلَاقِهِ
وآثاره، وخذ ما يأتيك عَمَّنْ عَاشَ بِقُرْبِهِ، وَقَدَّرَهُ أَحْسَنَ التَّقْدِيرِ (ولا ينبئك مثل خبير)، وقد مضت:
(وها أنا أَعْرِفُكُمْ بِهِ، لَا أَنِّي أَعْرِفُكُمْ بِهِ)، وسوف أشرحها لك بلسان الصَّادِقِ الْأَمِينِ، فخذها باليمين
بلا مين:

أخي القارئ: إِنَّ أَخِي السَّعِيدَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَدَّ مِنَ الْعَزِّ وَالْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ مَنَاهِلٌ؛ فَلَوْ كَانَ وَرَاءَ
الْبَحْرِ - فِي ذَلِكَ - مَطْلَبٌ لَخَاضَ الْبَحْرَ إِلَيْهِ، أَوْ كَانَ فِي أَعْمَاقِهِ مَأْرَبٌ لَغَاصَ فِي لُجْجِهِ عَلَيْهِ؛ حَالَهُ:
المجد تطلبه نفسي فتبلغه ولست أَرْضَى سِوَى التَّحْلِيقِ فِي الْقَمَمِ

والآن مع بعض الوقفات:

نصحه لاخوانه:

كان السَّعيد طيلة أيام جهاده ناصحاً أميناً رؤوفاً رحيماً بإخوانه، خاصة في تلك الفترات التي يكون فيها أميراً عليهم، فكان لهم فيها كالمصباح المضيء، يمدّهم بصفوة تجاربه، وزبدة معارفه، يعرّفهم مواقع الصّواب، ويبصّرهم بمواقع الارتياب، وما يورّثهم حلول النّقمة والعذاب، ويصعدهم شرف التدبير، ويشرف بهم على حسن المصير، أو ليس هو أميرهم وأخوهم الكبير؟؟ بلى؛ بلى..

وكان - رحمه الله تعالى - في كل ذلك يمتاز بصدق اللّهجة، وتحديد الفكرة، وصرامة النّظرة ووضوح الهدف، وجلالة الطّرح والشرح.. إلى غير ذلك من الخلال النبيلة، والصفّات الجميلة، متمثلاً بين عينيه حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام: ((الدّين النّصيحة))، ولسان حاله: (والإرشاد عنوان العقيدة الصحيحة)، والنّصيحة لعباد الله المسلمين، من الخلق الحسن الذي هو دليل على صفاء النّفس ونقاوتها، وسلامتها من الحقد والغشّ - إي والله - وصاحب هذا الخلق الكريم يلتبس إحسان الله عليه بإحسانه للنّاس، فالجزء من جنس العمل و ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾..

ولكن يا حسرة وغفلة هذا الإنسان..

خدمتہ لایخوانہ:

كان السَّعيد - رحمه الله تعالى - يخدم إخوانه في الحَلِّ التَّحَالٍ، فلا تراه إلاَّ جادًا في ذلك، وهذا ديدنه طول جهاده، فضرب في كل الأعمال بسهم وافر، ومن نماذجه المشرَّفة في ذلك، أنَّه كان ينتظر إخوانه بعدما يفرغوا من تناول الطعام، ثمَّ يسارع هو لغسل الأواني، وتنظيف المطبخ، مضى على هذا الخلق إلى أن فارق الحياة فجزاه الله عن إخوانه خير الجزاء ..

وكان - رحمه الله تعالى - إذا نام إخوانه يقوم على ساعد الجملتستترَّ ا بظلام اللَّيل!، فيغسل ما يجده أمامه من ثياب الإخوة، فلم تهناً نفسه إلاَّ بذلك، ثم يقوم الإخوة في الصَّباح، فيجدوا ثيابهم مغسولة نظيفة، لا يدرون من فعل ذلك، ولكن كُشف بعد ذلك وعُرف وعُرف .. واستمرَّ الموقف على تلك الحال طيلة أيَّام وليال .. فرحمك الله أخي السعيد ..

وصدق الشَّاعر :

وليس أخو الحاجات من بات نائما ولكن أخوها من يبيت على رَحْل

حياؤه وحلمه:

تَحَلَّى السَّعِيدُ بِمَا وَصَفَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ الْأَشَّجُ بْنُ قَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ((إِنَّ فِيكَ لَخَلْقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمَ وَالْأَنَانَةَ))، فَلَقَدْ كَانَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - حَلِيمًا رَحِيمًا مَعَ إِخْوَانِهِ، طِيبَ الْكَلَامِ؛ حَتَّى فِي أَشَدِّ حَالَاتِ الْخِصَامِ، لَا يَعْرِفُ السَّبَابَ وَالشَّتْمَ إِلَى شَفَتَيْهِ سَبِيلًا، مِمَثْلًا قَوْلَ رَبِّهِ جَلَّ فِي عِلَاهُ: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة من الآية: 83]، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: 53].

أَمَّا حَيَاؤُهُ؛ فَإِنَّكَ لَا تَتَرَدَّدُ مِنْ أَوَّلِ لَحْظَةٍ تَرَى فِيهَا السَّعِيدَ فِي الْحُكْمِ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ صَاحِبُ حَيَاءٍ جَمٍّ، تَرَى ذَلِكَ جَلِيمًا فِي حَرَكَاتِهِ وَسُكُنَاتِهِ، وَمَلَامَحَ وَجْهِهِ الَّذِي تَلُوحُ عَلَيْهِ نَضْرَةُ النَّعِيمِ، وَكَيْفَ لَا يَتَحَلَّى بِذَلِكَ، وَنَبِيِّهِ ﷺ يَقُولُ كَمَا فِي صَحِيحِ الْإِمَامِ مُسْلِمٍ: ((الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلَّهُ)) وَيَقُولُ أَيْضًا كَمَا فِي صَحِيحِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ: ((الْحَيَاءُ وَالْإِيمَانُ قَرْنَانِ جَمِيعًا فَإِذَا رَفَعَ أَحَدُهُمَا رَفَعَ الْآخَرَ))، نَسْأَلُ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ..

قال الشاعر:

إنني لأرى من لا حياء له ولا أمانة وسط القوم عريانا!

وبالجملة، فَقَدْ كَانَ لَهُ مِنَ الْحِلْمِ وَالْوَقَارِ، وَالسَّكِينَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَالصَّبْرِ وَالْوَفَاءِ، وَسَهُولَةِ الْجَانِبِ، وَعَدَمِ تَذَلُّهِ لِغَيْرِ اللَّهِ؛ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ..

حبّه لنشر العلم:

كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ حَرِيصًا عَلَى نَشْرِ الْعِلْمِ وَتَعَلَّمَ أَحْكَامَ هَذَا الدِّينِ، وَمِنْ حُبِّهِ لِنَشْرِ الْعِلْمِ، أَنَّ طَلَبَ مَرَّةٍ مِنْ بَعْضِ إِخْوَانِهِ مَنْ كَانَتْ لَهُمْ رَغْبَةٌ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، بِأَنَّهُ يَقُومُ بِتَرْتِيبِ حُلُقَاتٍ وَعِظٍ وَتَذْكِيرٍ لِلْمُجَاهِدِينَ، وَيَقُومُ هُوَ بِإِعْفَائِهِ مِنْ كُلِّ الْمَهْمَاتِ وَالْأَشْغَالِ، حَيْثُ تَتَرَكَّزُ مَهْمَّتُهُ إِلَّا عَلَى التَّوْجِيهِ وَالتَّذْكِيرِ وَالْوَعْظِ فَقَطْ، وَالْحَرَصُ عَلَى اسْتِقَامَةِ الْجَمِيعِ عَلَى مَنِهْجِ اللَّهِ تَعَالَى، فَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ حَرِيصًا عَلَى تَعَلُّمِ أَحْكَامِ هَذَا الدِّينِ، وَضَرْبِنَا مِثَالًا وَاحِدًا فَقَطْ، لِنُنَبِّهَ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ، وَيَدُلَّ عَلَى مَا وَرَاءَهُ..

همته:

كَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَالِيِ الْهِمَّةِ، لَا يَكَلُّ وَلَا يَمَلُّ مِنَ السَّعْيِ، فَهُوَ صَاحِبُ الْعَمَلِ الدَّؤُوبِ، تَرَاهُ مِثْلَ النَّمْلَةِ: (لَا تَبَالِي مَا دَامَتْ دَائِبَةٌ، أَنْ تَرْجِعَ مَرَّةً مَنَاجِحَةً وَمَرَّةً خَائِبَةً)، كَمَا يَقُولُ الْإِبْرَاهِيمِيُّ عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى، رَافِعًا شِعَارًا:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه فمن كان أسعى كان بالمجد أجدر
وبالهمة العليا ترقى إلى العلى فمن كان أعلى همّة كان أظهر
ولم يتأخر من أراد تقدّمًا ولم يتقدّم من أراد تأخرا

فكان عزمه رحمه الله سيف قاطع، وأمله نور لامع، ماثلا أمام عينيه قول شيخ الإسلام بن القيم رحمه الله تعالى: (فلو علّت بك همّتك رُبا المعالي، لاحت لك أنوار العزائم) من كتاب: (الفوائد)، ولهذا قام السعيد - رحمه الله تعالى - من تلك الأرض المستوية، متطلّعا إلى القمة السامقة، فقام بتلك الوثبة الكبرى، التي دفعته إليها غيرته على هذا الدّين، وحبّه الانتصار للمظلومين، والانتقام من الظالمين.. فنطقت بفضل سعيه؛ جبال ولاية جيغل، وممرات وتلال بلدته (حمزة)، وجبله الذي كان يأوي إليه: (بوحنش)، وغير ذلك من الرّبا والهضاب، والسّهول والوهاد، والأماكن التي كان يطوف عليها أثناء حياته الجهادية، فكان رحمه الله، كالغيث أينما وقع نفع، وأينما زرع حصد..

زهده:

كان يُضرب به المثل في الزّهد والتّقشّف، فلا أعلم أن السّعيد امتلك خلال حياته الجهادية أكثر من لباس قطّ...!!، فكان لا يملك إلا اللّباس الذي يرتديه، والتي كانت في أغلب الأحيان بالية، لم تكن الفاقة هي التي اضطرّته لذلك، وإنما زهده وإيثاره، فكان كلّما امتلك ثياب جديدا، إلّا وأهداه إلى أحد إخوانه، ممّن هم بحاجة إليه، قلت له مرّة هلاّ اتخذت لنفسك (بدلة) أخرى تستعملها عند الحاجة؟! فأجابني بكلمة مختصرة جدّا جدّا: ولم..؟

وفي الوقت نفسه، كان قنوعا لا يسأل النّاس متأسّيا بمن قال الله فيهم: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْفَافًا﴾ (البقرة من الآية: 273).

قال الشاعر:

ومن لزم القناعة نال عزا وهل بالذلّ منقبة تُنال؟

حاله:

الدّهر أدبني والصّبر ربّاني والقوت أقنعني واليأس أغناني

لقد ركل الدنيا برجليه، فاستوى عنده ذهبها وحجرها، وكان منها؛ كما قال الإمام الحسن البصري رحمه الله تعالى: (والله ما أبالي شرّقت أم غرّبت)..

سخاؤه:

وهو في ذلك محطّ الرّحال، وكعبة الآمال، وكأنّ الشّاعر يعنيه يوم قال:

لاموه في بذل الأموال قلت لهم هل تقدر السّحب ألا ترسل المطرا؟

فلا تعجب إذا من أنه ارتفع وساد، قال حَبْرُ القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ((سادة الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء)) و(كل عيب يغطّيه السخاء) كما قيل..

* * *

لا يخزيك الله أبدا:

هذه بعض أخلاق عبد الرحيم - رحمه الله تعالى - والتي تشفي بنسيمها العليل، وتنفي ببرد زلالها حرّ الغليل، وهو في ذلك بطلها بلا منازع، وفارس الحلبة بلا مدافع - كما أحسبه - ومن أراد أن يسابقه في ذلك الميدان فلا يدرك منه إلا الغبار، ولا يسمع عنه إلا الأخبار فحقّ له أن يجرّ بأخلاقه ذيول العزّ والافتخار، فله - رحمه الله تعالى - في الأخلاق شرف باذخ، تُعقّد بالنّجوم ذوائبه - أحسبه كذلك والله حسيبه - والحديث عن سيرته كثير الحواشي، والغرض الإشارة إلى بعضها وقد حصّل، وإن لم يكن وابل فطلّ، ويكفي من القلادة ما يحيط بالعنق، وما أنا مع أخلاقه؛ إلا: (كالعطشان كُشف له عن ماء عذب، ومُنِع منه بمانع صعب):

إذا حارت الأبواب كيف تقولُ في ذا المقام فعذرهما مقبولُ

وبالجملة؛ لقد كان له شأن كبير - كما أحسبه - فكانت أيام جهاده سعيدة جميلة، وخصاله وأخلاقه فيها مع إخوانه كريمة نبيلة، وإذا تأملت أخي القارئ ما ذكرت، وسرحت فيما شرحت، جرّت على لسانك مقولة أمنا الحبيبة خديجة رضي الله عنها لنبينا ﷺ: ((كلا والله لا يخزيك الله أبدا)) [رواه البخاري]، وهذه الإشارة تدلّ على ما وراءها، فلا تغفل عما قصدنا، واشهد لأخي السعيد بما إليه أشرنا..

أخي القارئ: على هذا النّحو من التربية العالية، والأخلاق الإسلامية السّامية، مضى عُمر السعيد (عبد الرحيم)، ولهذا انطبقت فيه تلك القيم الفاضلة، من أمانة وشهامة ورجولة، وعزّ وإباء وكرامة، وتواضع ولين جانب.. وكأنّ الشاعر عنه يوم قال:

على بابك العالي من الفضل راية على رأس أرباب المعارف تخفقُ
أرى غصن من يدعو إلى الفضل نفسه من الفضل عريانا وغصنك موركُ
فحقّ لنا أخي السعيد، أن نفاخر بخلقك الباهي، ونباهي بوجهك المشرق، وأنّي يخفى حسن خلقك
على مشاهد، أو يفتقر فضلك وإحسانك إلى شاهد..
كنت مرة مع أحد الإخوة، وتعرّضنا أثناء حديثنا إلى الأخ السعيد فقال لي ذلك الأخ - يعني السعيد -
عندما تراه تحبه..، هكذا سلب السعيد القلوب، ودخل إليها حبه بلا استئذان..
لقد كانت مرتبته بين إخوانه رفيعة مثل الكواكب، وقد قيل: (إن تفاوت المراتب، بحسب تفاوت
المناقب)، فلا يسابقه في ذلك أحد، فكأنهم النجوم وهو الفرق..
وهكذا انقضت أيامه الزاهرة، مخلفا وراءه ذكريات فاخرة، وقلوبا بالحب له عامرة، والسنة له تدعو
وبالخير له ذاكرة..

تبقى صنائعهم في الأرض بعدهم والغيث إن سار أبقى بعده الزهرا
فللسعيد - رحمه الله تعالى - نُشيد:

فمن يك راقيا شرف المعالي كمثلك في الوري لا شك يحمّد
وهاك من المحبّ (كلام نثر) (يشير) إلى وفائي بل (ويشهد)
أوفي بوعد صديقي لست أخلفه ولست أنقض عهدا خطّ بالقلم

* * *

نهاية المطاف:

ما من إنسان مهما امتد عمره، وطال أجله ولو عمّر ألف سنة، إلا والموت نازل به، قال تعالى: ﴿كُلُّ
مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: 26]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران من الآية: 185)، ولكن
شتان شتان، بين من مات على الفراش، ومن مات في ميادين الجهاد والاستشهاد، فالفرق واسع،
والبون شاسع، واسمع أخي القارئ صرخة ابن الوليد ﷺ عندما حضرته الوفاة، حيث قال: ((ها أنا
ذا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء))..
قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل

عمران: 169)، فبشرى وطوبى لمن استعدَّ للموت قبل هجمته، وتزوّد من دنياه لآخرته، وإنّ من خير الزاد ليوم المعاد، عبادة الجهاد في سبيل الله تعالى، فهو التجارة المنجية، قال تعالى وبقوله يهتدي المهتدون: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُوْمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الصف: 10 - 13)

أما فارسنا الذي سبق الحديث عنه، فقد رحل ولسان حاله:

كفاني أن أموت مجاهداً وحبّ إلهي قائدي منذ نشأتي

نعم رحل السعيد؛ فصار إخوانه من بعد فقدته كعقيدٍ فُقدت واسطُتُفحقّ لكلّ مجاهد أن يذرف دموع الحزن عليه ..

سارت سفائنهم والنوح يتبعها كأنها إبل يحدوها الحادي

فهبي رياح الموت نكباء وأطفئي سراج حياتي قبل أن يتحطّما

فيا قلب لا تجزع إذا عضّك الأسى فإنّك بعد اليوم لن تتألّما

ويا عين قد آن الجمود لدمعي فلا سيل دمع تسكين ولا دما

ويا قدمي ما سرّت بي للذلة ولم ترتق إلا إلى العزّ سلّما

فلا تبطئي سيرا إلى الموت واعلمي بأنّ كريم القوم من مات مكرّما!

* * *

سيقول المنافقون:

قُتل السعيد (عبد الرحيم) مجاهدا في سبيل الله، ولكن أهل الشقاق والنفاق كعادتهم يردّدون:

... ألقوا بأنفسهم إلى التهلكة.. أضاعوا حياتهم..! قضاوا على زهرة شبابهم بأيديهم..! ألم نقل بأنّ

هذا مصيرهم، وهذه هي نهايتهم..! أو بتعبير أدقّ: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ إلى آخر الترهّات

والخزّ عبلات، والضلالات والجهالات ..

ونحن نجيب دوما وأبدا بقول الله تعالى، وندفعه في نحورهم: ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ..

إذا ما الدهر جرّ على أناس مصائب أناس بآخرينا

فقل للشّامتين بنا أفيقوا سيلقى الشّامتون كما لقينا

ومن لم يعجبه ذاك الخطاب، وغلق في وجوهنا الباب؛ فإليه:

وما على العنبر الفوّاح من حرج أن مات من شمّه الزّبال والجعل

* * *

الخاتمة..

لقد جالت مع هذه الكلمات الخواطر.. وتهاطلت عليّ سحائب الذكريات المجيدة التليدة.. وتلك الأيام الغراء التي قضيتها مع أخي الصديق الحبيب السعيد (عبد الرحيم).. وقد اختلط وأنا أسطر هذه الجُمَل؛ الحنين بالأنين..

وكم تحدّثني نفسي على الإسراع في الخطو لبلوغ تلك القمة السامقة التي بلغها السعيد، فلا أملك إلا أن أقول لها: هاه.. بأيّ شيء؟ فاللهم وفق، وأختم لنا بالباقيات الصالحات..

أخي القارئ الكريم:

إنّ الحديث عن هؤلاء الرجال يجلو ويطيب، وهو طيب كنفع الطيب.. ولكن الهمم قاصرة، والرغبات فاترة، ونار الجدد والحزم هادمة خامدة، ولو كان في نطاق الإمكان، زيادة البيان في هذا الشأن لأسهبت وأطنبت..

ولكن هذا جهد المقل، فالأمر كما قيل: العين بصيرة، واليد قصيرة.. ورحم الله من نشر فضل المجاهدين ولو بشر كلمة..

أما أنت أخي السعيد، فقد أبليت ومضيت.. ثم فارقتنا فأرقتنا.. وتركنا فأبكيتنا..

أراك هجرتني هجرا جميلا وما عودتني من قبل ذاكا

وما فارقتني طوعا ولكن دهاك من المنية ما دهاكا

ختمت ودادك في ضميري وليس يزال مختوما هناكا

أما نحن بعون الله وحده، فسنظلّ ثابتين صامدين.. وسوف نستمرّ حتّى نتمّ عملنا.. ونحقّق رجاءنا وأملنا..

سنظلّ في هذا الطريق أعزّة مستمسكين بديننا وكتابنا

حتّى وإن نطق الزمان تعجّبا من عزمنا وإبائنا ومضائنا

وختاما؛ هذا ما تيسّر أن أكتبه عنك أخي السعيد؛ فإن قصّرت، فحسبي من العذر ما عرفته من حلمك المألوف، وما ألفّته من كرمك المعروف..

سامح أخاك إذا الكفّ نبا صحّ مني العزم والدّهر أبى

الله يعلم أني لست ذا بخل ولست ملتصقا في البخل لي عللا
لكن طاقة مثلي غير خافية والنمل يُعذر في القدر الذي حملا
سلام إلى أن نلتقي في جنة برياض الخلد زيتتها الحور
أما سمعت قول الحقّ للقوم ادخلوا دار السلام فسعيكم مشكور
هذا النعيم به الأجرة تلتقي لا عيش إلا عيشة المبرور

أخي القارئ:

إلى هنا تمت هذه الرسالة، وقد سعدت بها وفرحت فرحة المطلق من الأسار، واهتززت لها هزة
الموسر بعد الإعسار..

كيف لا ! وقد قيل: (من ترجم لأحد فكأنما أحياه!)، زيادة على ذلك، فهي من البرّ والوفاء،
للإخوان والأصدقاء، رفاق الدرب وسلوان الروح: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ
لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾
(الحشر: 10)..

فلأجل تلك الصلة التي بيني وبين أخي السعيد، دوّنت تلك الشهادة، فاللهمّ إني أشهدك أنني أحبه
فيك، وأسأل الله أن يرزقنا قوة في الحقّ والإرادة، ويختم لنا بالسعادة والشهادة، كما نسأله سبحانه، أن
لا يجرمنا أجرهم، ولا يفتنّا بعدهم، ويلحقنا بهم غير مبدلين ولا مغيّرين، والحمد لله أولاً وآخراً
وظاهراً وباطناً..

اللهم لا تجعل ما ألّفته قرائحنا مردوداً إلينا بالطرد والإبعاد، ولا ما سطرته أناملنا شهيداً

علينا يوم يقوم الأشهاد وارزقنا شهادة ننال بها أعلى رتب الزلفى لديك، وبيض وجوهنا

يوم تسود الوجوه وتبيض بين يديك، فأنت ذو الطول العظيم والفضل العميم..

هذا؛ وأستغفر الله من كل ما زلّ به القلم.. أو شطح به الفكر.. والله أعلم

وصلّى الله على نبيّنا محمّد، وآله وصحبه وسلّم.

بقلم الفقير إلى عفوره: أبي عبدة.

من على ثرى أرض العزة والإباء، أرض الجهاد والاستشهاد؛ الجزائر.